



حديث
الكيمياء
بين
الأمير الأموي
والراهب الرومي

د. جلال شوقي

يزيد بن معاوية بن أبي سفيان في علم
الحكمة، ويُعتبر هذا الأمير الأموي (المتوفى
حوالي سنة ٨٥ هـ = ٧٠٤ م) من أوائل
المشتغلين بالكيمياء من علماء العرب
والمسلمين، إن لم يكن أولهم أجمعين.

لعلنا ونحن نؤرخ لبداية اهتمام
العرب والمسلمين واشتغالهم
بصناعة الكيمياء أن نرجع إلى مخطوط هام
محفوظ بمكتبة كوبرلي باستانبول برقم
٩٢٤ يحتوي على ديوان الأمير خالد بن



أكثر شغلك في طلب الصنعة، فقال خالد :
ما أطلب بذاك إلا أن أعني أصحابي
وإخواني، إني طمعت في الخلافة، فاختزلت
دوني، فلم أجد منها عوضاً إلا أن أبلغ آخر
هذه الصناعة، فلا أحوج أحداً عرفني يوماً
أو عرفته إلى أن يقف بباب سلطان، رغبة
أو رهبة.

ويقال - والله أعلم - إنه صح (٢) له
عمل الصناعة، وله في ذلك عدة كتب
ورسائل، وله شعرٌ كثير في هذا المعنى،
رأيتُ منه نحو خمسمائة ورقة.

ورأيتُ من كتبه :

- كتاب الحشرات،

كتاب الصحيفة الكبير،

- كتاب الصحيفة الصغير،

- كتاب وصيته إلى ابنه في الصناعة.

ويقول ابن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١هـ) -

١٢١١ - ١٢٨٢/١م) في كتابه :

«وَقِيَّاتِ الْأَعْيَانِ، وَأَنْبَاءِ أَوْلَادِ الزَّمَانِ» (٣)

إنه :

«كان من أغلَم قريش بفنون العلم، وله
كلام في صناعة الكيمياء والطب، وكان
بصيراً بهذين العلمين، متقناً لهما، وله
رسائل دالة على معرفته وبراعته. وأخذ
الصنعة من رجل من الرهبان، يُقال له

١ - سيرة الأمير خالد :

عن الأمير خالد يقول ابن النديم في
كتابه «الفهرست» :

«كان خالد بن يزيد بن معاوية يُسَمَّى
حكيم آل مروان، وكان فاضلاً في نفسه،
وله همةٌ ومحبةٌ للعلوم.

خطر بباله الصناعة، فأمر بإحضار جماعة
من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة
مصر، وقد تفضح بالعربية، وأمرهم بنقل
الكتب في الصناعة من اللسان اليوناني
والقبطي إلى العربي.

وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة
إلى لغة.»

ويقول عنه ابن النديم في موضع لاحق
من كتابه :

«خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان»
إسلامي مُحدث

قال محمد بن إسحق : الذي غني
بإخراج كتب القدماء في الصنعة خالد بن
يزيد بن معاوية، وكان خطيباً شاعراً،
فصيحاً حازماً ذا رأي، وهو أول من تُرجم
له كتب الطب والنجوم، وكتب الكيمياء.
وكان جواداً يُقال إنه قيل له لقد جعلت

مريانس الرومي، وله فيها ثلاث رسائل
تضمنت إحداهن ما جرى له مع مريانس
الراهب المذكور وصورة تعلمه منه،
والرموز التي أشار إليها، وله فيها أشعار
كثيرة مطوّلات ومقاطع، دالّة على حسن
تصرفه وسعة علمه.

هذا ويستعدُّ ابنُ خلدون (٤) - في
مقدمته - اشتغال الأمير خالد بصناعة
الكيمياء حيث يقول (٥) :

«وربّما تسبوا بعض المذاهب والأقوال
فيها (أي في الكيمياء) خالد بن يزيد بن
معاوية، ريب مروان بن الحكم.
ومن المعلوم البين أن خالداً من الجيل
العربي، والبدواة إليه أقرب، فهو بعيدٌ عن
العلوم والصنائع بالجملة، فكيف له بصناعة
غريبة المنحى، منبئية على معرفة طبائع
المركبات وأمرجاتها، وكُتُب الناظرين في
ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم
تُترجم، اللهم إلا أن يكون خالد بن يزيد
آخر من أهل المدايرك الصناعية تشبهه باسمه،
فممكن».

من هذه النصوص يبين لنا أنه بينما يؤكد
كلّ من ابن النديم وابن خلكان على اشتغال
الأمير خالد بالكيمياء، ويبتتان أن له فيها
مؤلفات وأشعاراً كثيرة، فإن ابن خلدون
يُنكر عليه ذلك، ولما كان ابن النديم وابن

خلكان أقرب عهداً للأمير خالد من ابن
خلدون، فإننا نُرجح ولا شك روايتهما على
رواية ابن خلدون، لا سيما وأن هناك
إشارات متواترة لاشتغال خالد بالكيمياء (٦)
ولسبب أشعار كثيرة إليه في هذه الصناعة،
وبجمعها ما يُعرف ديوان الأمير خالد بن
يزيد في الحكمة، ويبدأ بمقدمة ثريّة.

٢ - ديوان الأمير خالد في الحكمة :

لعلّ الأمير خالد بن يزيد بن معاوية بن
أبي سفيان (المتوفى حوالي سنة ٨٥ هـ -
٧٠٤ م) هو أول من أنشأ ما نعرفه اليوم
«بالنظم التعليمي»، حيث دوّن الأمير الأموي
معارفه في صناعة الكيمياء في قوالب شعرية،
وقد وصلت إلينا عدّة نسخ خطية من هذا
الديوان الذي يشتمل - حسب ما جاء
بمخطوط مكتبة كوبرلي باستانبول (٧) -
رقم : ٩٢٤ - على ٢٩٨٨ بيتاً، منها ٨٥
بيتاً منسوبة «لأبن تمام»، ولعله أبو الإصيح
عبد العزيز بن تمام العراقي الذي عاش في
القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي).

ويمكن القول بأن ديوان الأمير خالد
يضم نحو ٢٩٠٣ أبيات جمعها - حسب ما
جاء بنهاية مخطوط كوبرلي - محمد
الميقاني (٨) بتاريخ عصر يوم الخميس المبارك
الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة الحرام

سنة ١٠٣٧ هـ = ١٦٢٧ م، ومطلع

الديوان :

«يا طالباً يُورِطُش الحُكَماءُ

عِى منطَقاً بغيرِ حُفَاءِ

هُو زِينُ الشَّرْقِ الَّذِي هَتَفُوا بِهِ

فِي كُتُبِهِم مِّن جُمْلَةِ الْأَشْيَاءِ

سَمُوهُ زَهْرًا فِي حِفْيِ رَمُوزِهِم

وَالْحُرُشَقْلَا أَعْمَضُ الْأَسْمَاءِ

وَدَعُوهُ بَابِنِ النَّارِ كَيْمًا يُصَدِّقُوا

عَنْ صِنْعَةِ بَيْخَلًا عَنِ الْبُعْدَاءِ»

٣ - خطبة الديوان :

تقول خطبة المخطوط (١) :

«.... فَعَكَفْتُ عَلَى دَرَسِ كِتَابِ

الْفَلَّاسِفَةِ، وَقِرَاءَةِ الْأَوْضَاعِ السَّالِفَةِ،

وَهَالَعْتُ الْكَثِيرَ مِنْ تَوَالِفِهِمْ، وَوَعَيْتُ

الْأَعْدَادَ مِنْ رِسَالَتِهِمْ، وَمِنْ جَمَلَةِ مَا مَلِئَتْ

إِلَيْهِ، وَأَشْرَفْتُ عَلَيْهِ جَمْعَ دِيْوَانِ الْأَمِيرِ خَالِدِ

ابْنِ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ عَفَى اللَّهُ عَنْهُ، وَالسَّبَبُ

فِي وَصُولِهِ إِلَى هَذَا الْعِلْمِ، وَمَا جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ

مَرِيَّانِسِ الرَّاهِبِ، وَهُوَ مِمَّا نَسَخْتَهُ مِنْ كِتَابِ

غَالِبِ مَوْلَى خَالِدٍ، وَهُوَ خَادِمُهُ وَأَمِينُهُ،

وَنَقَّطَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَقَوَّمَهُ فِي أَهْلِهِ،

وَكَذَلِكَ (١) كَانَ مَعَ خَالِدٍ، يَفْوُضُ إِلَيْهِ

أمره، والتهان به إليه، وما ورد عليه من

مريانس.

قال غالب :

كان من سبب خالد ومريانس الرومي

السائح في جبال بيت المقدس أن خالد (١)

خرج ذات يوم متزهراً (٢) إلى دير مَرَّانَ

بدمشق، وكان مُغرماً بالصنعة، كلفاً بها، لا

يؤثر شيئاً عليها، وكان لا يبصر عن السؤال

عن أمرها، والبحث فيها، وعشَّ يرجو أن

يجد عنده عالماً منها، ومعرفةً بها، فأتاه رجلٌ

وطلب الإذن عليه، فأدخل إليه وسلم عليه

سلاماً بليغاً، وقال له الرجل بعد سلامه :

ياي رجلٌ من بيت المقدس، وقد أتيت

الأمير بنصيحةٍ لم يأتها أحدٌ بمثلها.

فقال له الأمير خالد : وما نصيحتك.

قال : بلغني أنك تطلب الصنعة، فأتيت

أخبرك عن رجل في جبال بيت المقدس، أنا

عارفٌ بمكانه، يُهدي إلى بيت المقدس في

كل سنةٍ من الذهب شيئاً كثيراً. فقال له

خالد : لئن كنت صادقاً فيما ذكرت

لأعطيتك ما يقصرُ مثاكِ دونه، ولئن كنتُ

كاذباً فيما ذكرت لأبلغن بك ما تستحقه.

فقال له الرجل : حسبتك قد أنصفتني من

نفسك.

قال : ففرح خالد بذلك، وأعجبه ما

رأى (٣) منه، وأمر له بجائزة وكسوة،

ووعده خيراً حسيماً

الرومي حديثه عن الصنعة فيقول : «وقال
إسطناس : إن هذه الأربع طبائع هي
مزوجة من واحد، وهي الحرارة والبرودة
والرطوبة واليبوسة، بعضها ببعض يعمل،
وإن هذه الأخلاط منها أصول، ومنها فروع،
فأمّا الأصول فالماء والنار، وأمّا الفروع
فالأرض والهواء. وقال إسطناس أيضاً: رأيت
لمائنا الفضل على غيره، لضوته^(١٤) وصفائه،
فالأرض من ثقل الماء خلقت، وكذلك
وجدنا في خزائن آياتنا^(١٥) الأولين أن كل
ذي فوق فمن صنّف ما تحته لخلق، وكل ذي
تحت فمن ثقل ما فوقه لخلق.

وقال سرجس الراهب : كما أن الطبيعة العليا
السمائية ظهرت عنها الطبيعة السفلى
البشرية، كذلك الطبيعة العالية
السماوية^(١٦) خلقت من الطبيعة السفلية
ومن هذه الطبيعة تكون الصنعة لا من غير
هذه الطبيعة.

واعلم أن ما في السماء هو المدبر لما في
الأرض، لأنّ الطبيعة العليا هي المدبرة
للطبيعة السفلى»

ويشير مريانس الراهب في حديثه إلى الأمير
خالد بن يزيد إلى آراء الفلاسفة الآخرين،

٤ - لقاء مريانس الراهب بالأمير خالد :

«قال غالب : فوجّهني معه وجماعة من
الموالي، فسيرنا معه في فياني، ترفعا أرض،
وتخفضنا أخرى، فلبتنا كذلك أياماً في طلب
السائح، فإذا نحن به، فلما رأيناه وجدناه
شبحاً كبيراً ضعيفاً طويلاً، حسن الصورة،
بهى المنظر، عليه جبة من شعر، وفرحنا به،
ورققنا به، وداريناه حتى قدمنا به على خالد،
وأدخلناه عليه، وفرح به فرحاً شديداً، ما
رأيناه على مثله قط، ثم التفت إلي فسألني عن
سيرنا ورجوعنا، فأخبرته بالأمر كله، ثم
أقبل على الشيخ فسأله عن اسمه، فقال : إن
اسمي مريانس الرومي.

فقال له خالد : منذ كم سيحت في هذه
الجيال.

فقال : من بعد ملك هرقل بأربع سنين.

فقال له : يا مريانس اجلس، ورفعه في
مجلسه فأعجبه ما رأي من شيمته وأدبه
.....»

٥ - الدروس الأولى في الصنعة : الطبائع الأربع :

عند هذا الموضع يبدأ مريانس الراهب

ليوسانيه إنَّا قد أعدمنا السواد، وأنشأنا
البياض بالملح والنطرون، والذي هو باردٌ
رطبٌ، فعند ذلك سُمِّناه بوريطسا،
وتصديق ما ذكرْتُ قول هِرْمَس إنَّ بدو
الأمر السواد، وبعد ذلك يكون التبييض
بالمح والنطرون لأنَّه إنَّ كان بدُّ أمره
أحمر^(١٠)، فصار في آخر الأمر أبيض،
وذُهب عنه سواده، ثم بصير أحمر مشرقاً.
وقد قالت مارية: النحاس إذا أحرقت
بكبريتته، ورُذِّدت عليه الرطوبة حتى ينهدم،
ذهب ظله وسواده، وصار ذهباً رقيقاً
خيراً^(١١) مما كان.

وقال زوسيم أيضاً: إنَّ النحاس إذا أحرقتَه
بالكبريتته، ورددت الرطوبة وصنعت به ذلك
مراراً صار أحمر ممَّا كان بإذن الله تعالى.
وقال غيره إنَّ نحاس الحكماء إذا لطخ
وصفا كصفاء عيون الحيتان، فارجوا خيره
وأيقنوا أنَّه سرجع الى طبيعته الأولى وإلى
لونه.

وقال آخر: إنَّ النحاس - وإنَّ صدئ وتغير
- فليس بخارج عن طبيعته ولونه، كالذي
يقطع الفرغ من على وجه الأرض، والأصل
قائمٌ في الأرض، فإنَّه يعود في النبات إلى
حالته، كذلك نحاسنا نابتٌ بطبيعته ولونه.
وقالت مارية: إنَّ النحاس لن يقدر أحدٌ أن
يذهب ظله، ولكن الرقيق غطاه في مدَّة

فيستطرد قائلاً:

«وقال هِرْمَس: إنَّ الأرض هي أمُّ الطبايع،
منها وُلدت وإليها تعود.

قال فيثاغورس: كما أنَّ الأشياء كلها إنَّما
كانت أخذت من واحد، فكذلك هذه
الصنعة إنَّما هي من شيء واحد، وجوهر
واحد، وكما أنَّ في بدن الإنسان أربع طبائع
خلقها الله - تعالى ذكره - وجعلها معروفةً
متصلةً منفصلةً، مجتمعةً متفرقةً، يجمعها بدنٌ
واحدٌ، وكلُّ واحدٍ منهن يعمل عملاً غير
عمل صاحبه، ولها قوَّامٌ ولونٌ وسلطانٌ على
حدة، كذلك^(١٢) هذا الشيء، ومثل ذلك
شهادة الحكماء إذا نظرت إليها كثيرة.»

وقال مرياني:

إنَّما كان شأن الحكماء أن يضيِّعوا اسم^(١٣)
منه وبه قيل أن يضيِّعوا به، فكأنَّه بما قلته
لك. ويقول زوسيم: المصوِّرون إذا أرادوا
أن يصبغوا أيَّ شيء من الألوان أرادوا،
أخذوا من الألوان والأعشاب والأجساد وما
شاكل ذلك اللون، فيصوِّروا به منه،
وكذلك صنعنا الرقيقة إنَّما شَبَّهناها
بالمصوِّرين الذين يأخذون أيَّ لون شاءوا،
ويريدون أن يعملوا منه صبغاً ليصبغوا به ما
شاءوا من ذلك اللون، وقوَّعهم أيضاً إنَّ
نحاسهم - وإنَّ كان أحمر^(١٤) في الأول -
فإنَّه لا يُنتفع به حتى بصير أبيض. وقوله

الطبخ فيبيضه، ثم عطف النحاس على الزئبق على آخر الأمر^(٢١) فحضره.

فهذا قول الحكماء إن النحاس يذهب لونه في التدبير، ثم يعود إليه، وكما لا يقدر أحد أن ينزع جميع الشهوات من حسد الإنسان، كذلك النحاس لا يقدر الزئبق على تغييره وإذهاب لونه إلا في رأي العين، فأما في الباطن فلو أنه باق^(٢٢) ثابت، وأما النحاس فإنه يذهب بياض الزئبق، ويُجبل لونه إلى الحمرة في المنحبر والمنقطر حتى لا يعود إلى حالته الأولى أبداً، لأن النحاس قوة مليحة عجيبة تظهر على الألوان كلها إذا كانت^(٢٣) الألوان مغسولة قد ذهب عنها سوادها ووسخها وبيضت، فعند ذلك يجذب النحاس السيل إلى تحميرها ...

٦ - حجر الحكماء أو حجر الفلاسفة :

يقول الكاتب :

« لقد وجب شكرك عليّ بما أوليت وأعطيت من نفسك، وقد وعدت باستتمام هذا الأمر فلا يتقلّر عليك ما أسألت عنه، فإن ذلك لاغباطي بما وجهه الله تعالى من معرفتك، ومن عليّ به منك، ولا أطمع في ذرّك من غيرك، وقد ذكرت لي العنصر واللون، وأحسنت في ذلك، وأنا أسألك عن مجسّة هذا الحجر الذي فضلته ورفضته

الجّهال، وطعمه وطبعه^(٢٤) وعموا به ونحاس فحاس نقي غير دنس، لئن اجسّته، كثير الرطوبة، ورطوبته عند الحكماء أكثر من جسّده، وأما وزنه فإنه حجر ثقيل رزين قوي في جسّته لا شيء يقهره بالموازنة، وأما طعمه فحلّو، وأما طبعه فهو شكل الهوى.

قال خالد :

فأخبرني عن رائحته قبل أن يُدبر^(٢٥)، ففره مبيته، وأما التدبير فهو الذي تقول فيه الحكماء إن هذا الماء يذهب برائحة^(٢٦) الميت الذي يشبه رائحة الفأر، وفيه يقول مرقوس الملك للحكيم علّمني ما أسماؤها، قال أيها الملك أف وتف، وربما سماها العلماء بألف اسم، وعملوا فيه منافع كثيرة، وجهلوه ولم يعلموا أنّه هو، ألا ترى إلى قول الحكيم ربّما دبر والمدبّر عمره كلّ ولا يعلم أنّه معه في جانب البيت، ثم عند التمام تطيب رائحته، ولا (يقى) فيه من الكدر والرّفورة شيء.

قال خالد :

فأخبرني عنه - أرخص هو أم غالي. قال (أي مريانس) له :
اقبل على قول الحكيم الصالح إذ يقول إن علّمتنا من شيء واحد، فاعقل أيها السامع، واستعمل فكرك، وإياك أن تقع في الأشياء

قال (أي مريانس) :

هو كما قال الحكيم الغني والفقير،
والشريف والوضيع، والمسافر والمقيم، وفي
الطريق يُطرح، وفي المزابيل يُوجد ويُوظَى
وَيُحْتَقَر به، ما أوحش ما احتقرت به
الهُهَال، ولم يعرفوا قُدْره، وأكثر منه
الحكماء وأجلوه، واعلموا أيها الحكماء
أَنَّهُ (٢٠) واحِدٌ مَكْنُونٌ مَحْرُونٌ فِيهِ الطَّبَائِعُ
الأربع، وهو أقوى الطَّبَائِعِ.

وقالت ماريه : إِنَّا كُنْمْنَا سَرْنَا عَنِ السُّفَهَاءِ،
وَأَبْدَيْنَاهُ لِلْحَكْمَاءِ، وَسَرْنَا وَاحِدٌ مَطْرُوحٌ فِي
المزابيل، لكنَّهُ لَا يُعْلَمُ حَتَّى يَظْهَرُ وَيَخْرُجُ، ثُمَّ
تَرْجِعُ إِلَيْهِ رُوحُهُ وَتَسْكُنُ فِيهِ. وَقَالَ أَيْضًا إِنَّهُ
سَرٌّ ظَاهِرٌ عَظِيمٌ مَكْنُونٌ مَحْجُوبٌ عَنِ
السُّفَهَاءِ، مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْحَكْمَاءِ، فَاحْتَفَظُوا
بِهِ، فَصِيَ الحَفِظُ بِهِ تَشْتَرَفُونَ فَإِنَّهُ مَرْتَفِعٌ
مَكْرَمٌ، فَيَبْغِي أَنْ لَا يُهَانَ مِنْ أَجْلِ أَنَّ اللَّهَ
عَزَّ وَجَلَّ كَرَّمَهُ، وَهُوَ فِي مَكَانٍ يَلْقَى كُلَّ
وَاحِدٍ يَطَاوُهُ بِرَجْلِهِ، فَهَذِهِ كِرَامَةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ، إِهَانَةٌ حَتَّى لَا تَعْرِفَهُ السُّفَهَاءُ، وَهُمْ
يَتَحَسَّرُونَ مِنْهُ، وَهُوَ أَطْهَرُ مِنْهُمْ، لِأَنَّ اللَّهَ
تَعَالَى جَعَلَ فِيهِ سِرًّا مَكْنُونًا.

قال خالد :

فهل تعرف حجراً يشبهه، ويعمل عمله
لاجتماع الطبايع الأربع فيه، أهو يشبه
الدنيا وتركيبها.

الغريبة، وأعلم أن الكباريت والزرنايخ تحترق
وتتفرق ولا تثبت، وأن الزئبق على كل حال
أبقى، وغير ذلك من العقاقير إذا شُمَّ النار
احترق فكيف يُرجى خَيْرٌ (من) شيء إذا
دخل النار تَفَرَّقَ واحترق وصار فحماً.
والخجارة لا تدخل في الأجساد، ولا تغوص
فيها لأنّها، أجساد فلا تغترّ بها، ولكن النظر
إن أحسنت تدبير الظاهر حتى تُصَيِّرَهُ باطناً،
والباطن حتى تُصَيِّرَهُ ظاهراً، وإلّا فَكَفَّ يَدَكَ
عَنْ كَيْسِكَ، فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ يُشْتَرَى (٢١)
بِالْثَمَنِ فَهُوَ باطل.

قد بَيَّنْتُ لَكَ وَأَعْلَمْتُكَ الَّذِي يَجِبُ لَكَ
عَلَيَّ، وَمَا حَمَلْتَنِي عَلَى أَنْ يَبْتَئَ لَكَ ذَلِكَ إِلَّا
رَحْمَةَ الرِّهْبَانِ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ فِي
طَلَبِ هَذِهِ الصَّنِيعَةِ، وَالنَّاسُ قَدْ ضَيَعُوا أَهْلَهُمْ
وَدِيَارَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَقْنُوا أَعْمَارَهُمْ، وَجَعَلُوا
عَنَابَتَهُمْ فِيمَا لَا يَرُدُّ عَلَيْهِمْ ضِرًّا، فَإِيَّاكَ
وَالنَّفَقَةَ، فَإِنَّ الْعِلْمَ التَّامَّ لَيْسَ فِيهِ نَفَقَةٌ، وَلَا
يُشْتَرَى بِثَمَنِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ زَوْسِيمٌ
لَأُوناسِيه : أَحْذَرُكَ أَنْ تَغْرِمَنِي فِي أَشْيَاءِ (٢٢)
وهي العقاقير التي تُسَمَّى صِنْعَةَ الذَّهَبِ،
وَقَالَ أَيْضًا مِنَ التَّمَسُّ سَرٌّ هَذَا الْحَجَرُ فَهُوَ
أَمِينٌ بِمَنْزِلَةِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَصْغُدَ سَلْمًا بِغَيْرِ
دَرَجٍ، فَإِنَّهُ يَسْقُطُ عَلَى وَجْهِهِ.

قال خالد :

مفقود هو أم موجود.

قال (أي مريانس) له :

ليس في الدنيا حجرٌ غيرُه يُشبهه في عمله
وطبائعه، ولم يعمل حكماؤنا إلا منه ولو
الشمس العمل من غيره لما استقام لهم تدبيره،
ولا طواعيهم، والناس في هذا الأمر على أربع
منازل :

إما رجلٌ أودعه فكتمه ولا يُخبرُ به إلا لمن
استحقه، وإما رجلٌ لا يطلب منه شيئاً،
وتترك العاقل طلب الحكمة عجزاً وضعف
رأي منه،

وإما رجلٌ يتدع تدبيراً وعلاجاً من ذات
نفسه، فذلك الهالك المهلك،

وإما رجلٌ علم نفسه، وفرغ قلبه، وصرف
جهته في جمع كتب الحكماء، وواظب على
قراءتها، وذاوم النظر فيها، ووقفه الله لذلك،
وألهمه بما اتضح له منها، شكر الله تعالى
عليه، وما أشكل عليه منها رغب إلى الله عزَّ
وجلُّ تضرعاً إليه، وسأله أن يكشف له،
ويفتح له ما عجز عن فهمه.

فلما سمع خالد منه هذا القول، لم يزل منكياً
على قراءة كتب الحكماء، ناظراً فيها، مُقبلاً
عليها، يقيس بعضها على بعض، ويستشهد
بعضها على بعض، حتى وَهَب الله له معرفة
ما التمس.

ثم قال خالد لغالب :

اعلم أنه لا يتعلم علم مريانس إلا العاقل

الموفق، وبالله توفيقي، وبه نستعين. ألزم يا
غالب هذا الشيخ، واحفظ ما تراه منه، فإن
أخاف أن يهلك قبل أن آخذ علمه، وإن
هَلَك قبل ذلك إنها لخسارة، وأنا أرجو أن
يعفينا الله عز وجل، ويهب لنا علماً بتفضيله
وجوده...»

وهنا نجد على الهامش الأيسر هذه الورقة
السطور الآتية : «نسخة»

«من الخمير ربع جزء، واعلم أن خمير
الذهب ذهب، وخمير الخمير منه، ولا يصلح
إلا به، وأجعل هذا الربع جزءاً من الخمير مع
خمير الذهب، ومن خمير الخمير ما يصلح به،
واحملهم على الطبخ.»

وتابع كلام مريانس حيث يقول :

«حتى إذا صاروا شيئاً واحداً فأبدأ على بركة
الله وعونه في الغسل، وهو أن تصب عليه
جزءاً من السم وتطبخه به مملياً ثلثه، وانظر
لا ينقص من إنائه أباً من شيء ولا تغفل عن
أمر النار لئلا يشتد نارها، فتَهْلِك قِدْرُك،
وتدمر على ما فيها بما ترجو خيره، ثم اغتد
إلى قِدْرِكَ بعد سبعة أيام، وانظر إلى
الإكسير، فإن كان شرب الجزء الذي جعل
فيه السر، فاسقِه جزءاً آخر من بياض
البيض، وزد في قوة نارك قليلاً حتى يشربه،
فإذا عاد إلى اليس فاسقِه من الماء النقي كما
فعلت في الأول، وافعل به ذلك من السقي

في الطبخ حتى يستوعب ما كان تقيّاه من الماء، ولا يبقى منه شيء، فعند ذلك تظهر الأزهار وتختلف الألوان، ويلبس الإكسير لباس الملك، ويستلذ العذبات، ويصبر على الحر الشديد واحداً^(٣١) وعشرين يوماً، وهذا كله موجود في كتب الحكماء، واطلبه فإنك تجده مبيئاً مشروحاً واضحاً، فاكتفِ بقولي هذا أيها الأمير أرشدك الله، فإنك تُدرك المطلوبت، وتنال من الدنيا حاجتكَ، يتطول الله عليك، وتوفيقه إياك.

قال خالد :

فهل فرغ التدبير، أو بقي منه شيء تخبرني إياه.

قال (أي مريانس) :

يا خالد - قد فرغ لمن أحب الاختصار، ولمن أحب الفائدة فليسبقه من الماء الخالد يكون مُعداً له عنده، فإنه يزيد صبغاً وقوة إلى أن اكتمل أيها الأمير.

واعلم أنه من يزيد يزيد في صبغه بلا نهاية، ويشرب كلما سقّيته بلا نهاية.

فتعجب خالد من ذلك طويلاً، ثم أقام مريانس عند خالد إلى أن أقام العلم عياناً، وبلغ من العلم والعمل بُعته، فرفض الدنيا، وأحاز عمّا كان عليه أبوه وجدّه من أمر الخلافة، وهياً^(٣٢) له ظاهر مدينة حمص قصرًا، وهو المعروف إلى هذه الغاية بقصر

خالد، ويقولون كان نزهة خالد مع أهل الفقر والضعفاء والمساكين والغرباء حتى خرج من الدنيا.

وقالوا إن خالدًا عمل في ذلك القصر بمدّة قريبة على هذا التدبير، وعلى هذه الصفة من هذه الرسالة يقول مريانس ماله نهاية، وبذل وأعطى للناس، وأنفق في سبيل الله، فمن تكون له نيّة للخير والسداد والصلاح والكرم، فيرزقه الله عز وجل بحسن نيّته، وهذه وصفة خالد، وأقنى عمره بعد تمام عمله وحصول مقصوده، ولحق بمن مضى من الجيال، وقبر خالد ظاهر حمص، ظاهر الباب المعروف بباب الرستن بالقرب من قصره.

ونسأل الله الجود علينا بمعرفته وعافيته وجزيل عطائه، والمواهب لنا.

قال الكاتب : قد بين مريانس في هذه الرسالة وستر، وأنبغ مذاهب الحكماء، ونطق بكلامهم، فقوله بين للآية^(٣٣) مستور عن الجهلة، والخير بيد الله تعالى ثم إن خالدًا عمد إلى تصنيف ديوان أفهم به جماعة من طلبية هذا العلم، ونحن نبتدي بعون الله ونبيّته، ونكتب أشعاره، لأنه لم يسبقه سابق، ولا تقدّمه متقدم إلا كان مُقصرًا عنه لأنه سبّك أقاويلهم ونظّمها،

وأقن بأمتثالهم وأخبارهم، وفسّر أزماتهم،
وشرح ألعازهم بأحسن لفظ وعبارة.

وفي ختام هذا الحديث تجذّر الإشارة
إلى أنه قد وردت في هذه المقدمة التفرقة
للديوان أسماء عددٍ من الحكماء منهم :

«هرقل الملك، وإسطانس، وسرجس
الراهب، وهرمس، وفيتاغورس، وأرس،
وزوسيم، وأوثاسيه، ويوسانيه (أوبوسانيه)،
وماريه.

ومن المواد التي أشار إليها المخطوط
تذكر ما يلي :

«التحاس، والملح، والنطرون، وبوريطسا،
والكبريت، وأبار التحاس، الزئبق، والحجر
المعراوي الأرجواني، والياقوتة الحمراء،
وحجر العصفر، والسيلقون، والزرائخ،
والأكسير، والماء الخالد.

لعل هذه الدراسة المقصّبة لنشأة صناعة
الكيمياء، أو إن شئت البداية الأولى

للحكمة الآلية، لعلها تكون قد ألقت بعض
الضوء على عملية انتقال المعارف الكيميائية
من مدرسة الإسكندرية إلى علماء العرب
والمسلمين، وأن تكون قد أمّطت اللثام عن
أولى عمليات نقل العلوم إلى العربية، حيث
كانت الكيمياء أول ما نُقل إلى اللسان
العربي.

إنه وإن كانت الكيمياء قد بدأت
متأثرة ومدفوعة بفكرة إمكان تحويل
المعادن الحسنة إلى معادن ثمينة إلا أن
التقدّم الذي أحرزته المدرسة الإسلامية
العربية في مجال التفاعلات الكيميائية،
والعمل بأوزان مقدّرة وأزمنة مقاسة،
والانحياز من البداية إلى الاعتماد على التدبير
- أي التجربة - والممارسة والملاحظة
والاستقراء والقياس، كل ذلك قد حوّل
هذه الصنعة إلى علم ذي أصول، وجعل
للبحث منهاجاً علمياً سبقت به المدرسة
الإسلامية حضارة الغرب بمئات السنين.

● الهوامش ●

(١) مضمون مدار الكتب القطرية باللوححة برقم ميك ١٤٢، ويقع في ١٩٠ صفحة.

(٢) في الأصل : اصح.

(٣) الجزء الثاني، صفحة : ٢٢٤.

(٤) هو وثي الدين، أبو زيد عبد الرحمن ابن حنبلون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) - (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م).

(٥) طبعه دار الفكر بيروت، صفحة : ٥٠٥.

(٦) مثال ذلك : «مقالة مريانوس الراهب خالد بن يزيد في الكيمياء»، ابن حنبلون - ٢٢٤، ٢ - كنف الطنون خاصي خليفة.

(٧) ٢ : ١٧٨٤، كما رسائل خالد مريانوس الراهب، مخطوط بمكتبة شهيد علي.

(٨) مضمون مدار الكتب القطرية باللوححة - برقم : ميك - ١٤٢، ١٩٠ صفحة.